Journal of Total Science
Volume (9), Issue (35), (Marc. 2025)
ISSN: 2518-5799
مـجلـة الـعلـوم الشـامـلـة
المجلد (9)، ملحق العدد (35)، ([مارس2025)
ردمد: 2518-5799

المدرسة الصوفية الشعابية: رؤية سيسيوتاريخية في مراحل تشكل التصوف الليبي

أ. أسامة بن هامل
رئيس مركز الشيخ أحمد القطعاني للثقافة والدراسات الإسلامية – ليبيا

....

الملخص:

لا يزال التصوف وأدواره ضمن حقول المهمل والمهمش في التاريخ الليبي، فعلى الرغم من حضوره الكثيف ضمن تفاصيل العديد من المحطات التاريخية، إلا أن الدراسات حوله لا تزال أسيرة النقاش حول أصول منازعه الفكرية في أطره العامة بعيدا عن تطبيقاته في الواقع الليبي وتتبع ورصد تشكل شخصياته وظهور مؤسساته ونسقه الفكري.

وتطرح هذه الورقة مقاربة لدراسة ظاهرة التصوف في ليبيا ضمن سياقات سيسيولوجيا تطوره عبر المسارات التي قطعها في التاريخ الليبي، من خلال مدخل معرفي جديد يتجاوز القراءة المعتادة للتصوف في أطره الخارجية إلى دراسته من الداخل تأسيسا ومنطلقا وتشكلا وعملا؛ وذلك لرصد دوره كأحد فواعل الحركة المجتمعية التي لا تزال مهمشة في التاريخ الليبي، وتتبع تجليات أثره في تشكل وبناء أغلب مناحي الحياة في المجتمع والسياسة والاقتصاد والفكر والثقافة.

Sufism and its roles remain within the neglected and marginalized fields of Libyan history. Despite its significant presence in various historical milestones, studies on Sufism are still limited to discussions of its intellectual origins in general frameworks, without delving into its applications in Libyan reality or tracing the development of its figures, institutions, and intellectual system. This paper presents an approach to study the phenomenon of Sufism in Libya within the sociological contexts of its development throughout Libyan history. It adopts a new epistemological approach that moves beyond the conventional external perspectives on Sufism, focusing instead on an internal analysis of its foundations, formation, and practices. The aim is to capture its role as an active, albeit marginalized, movement in Libyan history, and to trace its impact on shaping and building various aspects of life in society, politics, economy, thought, and culture



مقدمة:

يركز التصوف عموما على إصلاح الفرد وفقا لمناهج تربوية تحيله إلى فرد قادر على توجيه السلوكيات وأنماط العيش في محيطه؛ فيشكّل – بمجموع السالكين فيه – قاعدة يرقى على أساسها ذلك المجتمع، ولقد حظي التصوف في المشرق العربي عموما باهتمام كبير من قبل الباحثين والدراسين الذين أنجزوا دراسات في أصوله المعرفية ومراحل تطوره وانتشاره وأعلامه وطرقه، وكذلك في المغرب العربي الذي أصبح يمثّل فيه أحد الحقول المعرفية الجديدة التي أولاها الباحثون مؤخرا اهتماما كبيرا بالكتابة عن تاريخه وشخصياته وخطاباته وأثره المجتمعي. وعلى الرغم من المنجز الذي حققته العديد من الدراسات المشرقية والمغربية في حقل التصوف، إلا أن أصحابها في الغالب لم يؤسسوا لأدوات خاصة تنطلق من أعمال المدونة الصوفية لقراءتها من الداخل، ولتسليط الضوء على شريحة عريضة في المجتمع التي نشط فيها التصوف والتنبيه على أدوره وموقعه.

أما في ليبيا فالمكتبة الصوفية تعاني فقرا حادا في الدراسات حول التصوف، على الرغم مما يحظى به في هذه البلاد من خصوصية ميزته في المنشأ والمجال والعمل، وشكلت بمرور الزمن قاعدة راسخة استمر الفعل الصوفي فيها بنكهة ولون الخاص به، وهو ما يتضح ويتجلى بقراءته من الداخل لنكتشف وجود مسار واحد في أسسه ومنطلقاته وأطواره ومراحله ونتائجه الظاهرة في الامتزاج الفكري والثقافي.

وليس في حوزتنا الكثير من الدراسات الجادة التي تنوه وتلفت النظر إلى خصوصية الظاهرة الصوفية في ليبيا، باستثناء عمل المؤرخ د. أحمد القطعاني فإليه يعود الفضل في التنبيه على وجود مدرسة صوفية ليبية مستقلة في فكرها ومنهجها ورجالها سماها بـ "المدرسة الشعابية" نسبة إلى الصوفي الطرابلسي عبد الله الشعاب المتوفى سنة 243هـ/857م باعتباره أول صوفي عرفته القارة الأفريقية (القطعاني، 2011م، ج1 ص 68)، وأولية ظهور التصوف بليبيا بحد ذاتها كافية في استنهاض همة الدراسين لتتبع تاريخها ورصدها.

أولا/ عوامل تشكل التصوف في ليبيا:

غالبا ما شكّلت العوامل السياسية والاجتماعية والثقافية وغيرها أساس ولادة التصوف في الأقطار الإسلامية على وجه العموم، ووضعت حجر أساسه الذي تشيدت عليه مؤسساته، لكن في ليبيا يبدو أن عوامل تشكّل ظاهرة التصوف مختلفة بعض الشيء، فالعامل الجغرافي كان له الدور الرئيسي بما تحمله جغرافيا البلاد من خصوصية في أبعادها التي خلقت لها موقعا

استراتيجيا منحها انفتاحا على كل الفضاءات، فالبعد المغربي منحها عمقا بشريا وتاريخيا، وفي ذات الوقت كان البعد المشرقي بمثابة شريان لعروبتها ودينها وثقافتها. ويتقاطع معهما البعدان الشمالي والجنوبي، بكل ما يشكّله الشمال من قلق من الغازي وفرص في الكثير من الأحيان للتعاون والشراكات الاستراتيجية مع العمق الأفريقي، الذي يمثّل البعد الجنوبي بوفرة موارده البشرية والطبيعية (حمدان، 1995، ص 139).

ومجموع هذه الأبعاد جعلت البلاد طريقا مهما للتواصل عبر جسرها الرابط بين الأقطار الواقعة في أبعادها الأربعة، ما خلق لها مجالا لأسبقية التعرّف على الثقافات والأفكار المارة عبرها قبل البيئات القارة الأخرى في الجهات الأربعة، بل وانفتاحا على كل جديد قبل غيرها، فدخلها المذهب المالكي قبل غيرها من المناطق والأنحاء الأفريقية على يد الشيخ علي بن زياد الطرابلسي المتوفى سنة 183هـ/799م، إذ يعد أول من أدخل الموطأ إلى الشمال الأفريقي ودرّسه وأول من فسر أقوال مالك (عياض، 1965، ج3 ص 80)، وفيها تأسست أول مدرسة مالكية في مدينة اجدابيا سنة 191 هـ على يد الإمام سحنون الذي كرّس فيها كامل وقته لتدريس الفقه المالكي (عياض، 1965، ج4 ص 47) ، بالإضافة لأولية ظهور التصوف فيها قبل غيرها من الأقطار الأفريقية على يد الشيخ عبد الله الشعاب كما أسلفنا الذكر، وعرفت الاعتقاد على مذهب الأشاعرة على يد إبراهيم الزبيدي القلانسي المتوفة سنة 359هـ/ 970م في وقت مبكر نسبيا، وهو من أوائل الاشاعرة في تاريخ هذا المذهب.

وفي الواقع فإن هذه الخاصية الجغرافية لموقع البلاد التي جعلتها جسرا ومنحتها خصوصية الانفتاح والتعرّف على الثقافات والأفكار بشكل مسبق، خلق لها في نفس الوقت حصنا منيعا من خلال انشداد عناصر وأجزاء تضاريسها بعضها ما شكّل لها وحدة ثقافية ووجدانية اتسمت بالديمومة وبمواجهة التهديدات والظروف في ذات الآن (حمدان، 1995، ص 41 – 42).

ووفق هذه الأصول الثلاثة تأسيس التصوف في ليبيا أشعريا مالكيا، لكن بطابع خاص مثّله اختيار الشيخ الشعاب كمؤطر لعملية التلاقح والتمازج بين الأصول الثلاثة في كل من الاعتقاد والمعاملات والأخلاق، فعلى يديه انتقل التصوف من الممارسة الفردية إلى الممارسة المؤسسية؛ وذلك من خلال زاويته التي بناها في طرابلس في النصف الأول من القرن الثالث الهجري، وتحولت طيلة الفترات التالية على تأسيسها إلى معقل رئيسي للتصوف ومحور حركته، حيث أدى هذا التحول المؤسسي المبكر إلى وضوح اتجاهات العمل الصوفي ومحدداته في مجالات الثقافة والفكر والاقتصاد والسياسة، وهو م لاحقه الشيخ القطعاني عندما سمى تلك الزاوية

بالمدرسة الشعابية، كما في ترجمته ليونس بن أبي نجم المؤدب تلميذ الشعاب إذ قال بأنه: "أحد تلاميذ مدرسة الشعاب الصوفية، بل واعتبر المؤدب وتلميذه عبد الله العازب: "امتدادا للمدرسة الشعابية الكريمة المميزة"، وأكثر من ذلك نبّه على استمرار تأثير الشعاب في التصوف في ليبيا إلى اليوم. (القطعاني، 2011، ج1 ص 205 - 206)

ثانيا/ المدرسة الشعابية:

تروي المصادر أن رجلا من أهل طرابلس ابتدأ بناء مسجد في المدينة ثم عجز عن إتمامه وبقي فترة على حاله، فجاء الشيخ الشعاب إلى قاضي طرابلس، وقال له: إني قد عزمت على بناء ذلك المسجد وأحب أن تستدعي الذي ابتدأ بناءه فتستفهمه: هل يتمادى في بنائه أو يرفع يده عنه فأتمّه وأسكن به، وفعلا أتمّه الشعاب بالإذن من ذلك الرجل وسكن به (التجاني، 1981، ص 249). وهو نص في غاية الأهمية والثراء يفيدنا في التعرّف على شخصية الشيخ الشعّاب من عدة زوايا، ويبرز لنا فكره الصوفي في جملة من القضايا:

1- يعرّفنا هذا النص بالبعدين الفقهي والعلمي في شخصية الشيخ الشعّاب، فحديثه إلى القاضي يشير إلى تضلعه في الفقه، فقد كان عارفا بجواب المسألة مسبقا، وهو ما يظهر من قوله للقاضي إما أن يتمادى الرجل في بنائه أو يرفع يده عنه فأتمه وأسكن به، ما يشير الى معرفته باختلاف المقاصد من البناء، فقصد الباني للمسجد الصلاة، وهو ما يختلف مع قصده هو من إتمام البناء للصلاة والمرابطة فيه لمراقبة ثغر المدينة، إذ المرابطة تستلزم الإقامة والملازمة للثغر، ولهذا صرّح بأنه يريد السكنى فيه. وسكنى المساجد مسألة فصّلها فقهاء المذهب المالكي واشترطوا فيها أن يكون ساكن المسجد متجردا للعبادة كما في قوله خليل "وجاز بمسجد سكنى لرجل تجرد للعبادة" (خليل، 2005، ص 211)، ما يشير الى إمكانية أن يكون الشيخ الشعّاب مالكيا وربما من كبار فقهاء هذا المذهب المالكي.

2- يحيلنا ما سبق إلى أن الشيخ الشعّاب لم يلجأ إلى القاضي للحكم في المسألة، فكما سلف كان واضحا أنه عارف بحكمها، ولذا فذهابه للقاضي كان للفصل فيها، فقد كان القضاة في ذلك العهد يمارسون وظيفة المفتي والحاكم ولم يكن قد فصل بينهما بعد، وإلا لكان بإمكانه أن يقصد صاحب المسجد لسؤاله هل يتمه أو يتركه دون

الذهاب إلى القاضي. وبالتالي فالأمر إما لأن مؤسسة الزاوية التي كان يرمي الشيخ الشعّاب إلى تأسيسها كيان له أهميته في دوائر الدولة ولابد من أخذ الرخصة والإذن لتأسيسها، أو أنه رغب في أن يشرعن مؤسسته بقرار رسمي من السلطة التي كان يمثلها القاضي في مثل هذه المسائل والقضايا، وفي كل الأحوال فالموقف مهم ويجلي لنا صورة العلاقة الحسنة بينه وبين السلطة الحاكمة.

والقصد الذي أبان عنه الشيخ الشعّاب – بإتمام المسجد للسكنى فيه ثم مارس من خلاله المرابطة والمراقبة– يفيدنا أيضا في أنه كان يمتلك خطة عمل مسبقة، من المؤكد أنه أقامها على دراسة لواقع المدينة وقتها، وبمعنى آخر فهو يمتلك مشروعا واضحا منذ البداية لتأسيس معقل صوفي متكامل، ويمكن تقصي ملامح هذا المشروع في عدد من الوظائف التي مارستها زاويته، ومنها:

أ/ الوظيفة الدفاعية وإشاعة الحس الأمني كثقافة ومسؤولية اجتماعية:

اتفقت جميع مصادر سيرة وترجمة الشعّاب وكتب الجغرافيين والرحالة الذين مروا على طرابلس على نعت زاويته التي أسسها الى جانب مسجده بـ "الرباط" لعلاقتها بدورها الذي اضطلعت به في أحداث الغزو البحري، إذ لا شك أنها أحداث كانت في قلب اهتمام الرأي العام لاتصالها بحياة الناس، فظهر هذا الدور الدفاعي أكثر من أدوار الزاوية الأخرى انطبع في الأذهان وصارت تنعت بالرباط. وهو ما يظهر من خلال العديد من المرويات والوقائع في سيرة الشيخ الشعّاب، ومنها أن امرأة لجأت الى الزاوية وجلست ببابها تبكي، فسألها عن سبب بكائها، فأخبرته أن لها ولد أسره عدو الدين وسألته الدعاء له بخلاصه، فدعا له، فتمكن ولدها من الفرار والرجوع إلى البلد (التجاني، 1981، ص 248). وهي رواية وإن غلب عليها طابع الكرامة الصوفية إلا أنها تكتنز مضمونا متعلقا بكثرة تعرض سواحل البلاد للهجمات والقرصنة في عهد الشيخ الشعّاب، كما أنها تفيد أنه كان مقصودا في هذه القضايا المرتبطة بالوظيفة الدفاعية التي كانت تمارسها زاويته.

وغير ذلك فيبدو أن الشيخ الشعّاب اعتني كثيرا بإشاعة الحس الأمني في أوساط أهل البلاد لضرورته في الدفاع عن الوطن، فشجعت تجربته الناجحة شخصيات أخرى على استنساخها، إذ انتشرت ظاهرة الأربطة حول طرابلس وشكّلت طوقا أمنيا حولها لعدة قرون، فيما بقيت زاوية الشعّاب محور العمل في هذا الجانب، حتى أن الرحالة البكري وصف طرابلس بعد قرن ونصف

من وفاة الشعّاب بأن بها "رباطات كثيرة يأوي إليها الصالحون أعمرها وأشهرها مسجد الشعاب" (البكري، 1992، ج 2 ص 153).

ب/ الوظيفة الاقتصادية:

تخبرنا جميع المصادر التي ترجمت للشيخ الشعاب بأنه كان نجارا، فربما يفيد الربط بين مهنته واختياره موقع زاويته ليكون مشرفا على ميناء المدينة وبين الحاجة إلى النجارة وبناء السفن، وإن كان هذا الأمر يبقى فرضا يحتاج للمزيد من التقصي والقراءة لتوضيح مدى مساهمة الشعّاب وزاويته الاقتصادية، لكن ما يجب الانتباه إليه أن وظيفة الزاوية الدفاعية عن المدينة ترتبط مراقبة شواطئها، وبالتالي توفير الحماية للتجارة البحرية التي ينتهي بها المطاف الى الرسو في الميناء القريب من مقر الزاوية، ما يعزز الشعور بأن موقع الزاوية كان ضمن تفكير عميق كان يهدف من خلاله الشيخ الشعاب الى أداء أدوار متعددة، منها ما له صلة بوعيه بأهمية تأمين التجارة التي تشكل لطرابلس أهمية استراتيجية واقتصادية بالنسبة إلى التجارة العالمية على مر القرون. وقد نستأنس في ذلك بالرحالة القزويني، الذي زار طرابلس بعد وفاة الشيخ الشعّاب بأربعة قرون، بأن المدينة نعمت برخاء اقتصادي ومعيشي، فقد كانت"عامرة كثيرة الخيرات والثمرات لها سور منحوت من الصخر وبساتين جليلة"، وأن بها رباطات كثيرة، لكنه لم يسم منها سوى رباط الشعاب وأبرزه من بينها بقوله بأنه "مقصود يأتيه الناس لبركته واحترامه" (القزويني، 1960، ص 408)، وهي إشارة كافية للتأكيد على محورية دور رباط الشعاب ومركزيته بين جميع الأربطة التي كان لها دور في توفير العامل الأمني للرواج الاقتصادي.

ج/ الوظيفة التعليمية التربوية:

لم تذكر المصادر هذه الوظيفة بشكل واضح، لكن يمكن رصدها من خلال وجود تلاميذ للشعاب بالزاوية لندرك بجلاء عنايته بالوظيفة التعليمية، فتلميذه المباشر الشيخ بن أبي نجم لم تعرف له مشاركة في حماية الثغور على الرغم من تأكيد تراجمه أنه لازمه في زاويته لمدة، لكنه اشتهر بالشيخ يونس "المؤدب" (القطعاني، 2011، ج1 ص 304)، وهو لقب يحمل الكثير من الدلالات في طياته، فعلاوة على أنه يؤكد عناية الشيخ الشعّاب بالتعليم والتربية، فهو يشير الى أن الوظيفية التعليمية كانت من وظائف الزاوية الأساسية، وأضطلع بها من بعده تلميذه ابن أبي النجم الذي تخرّج على يديه ثلة من أبرز علماء عصره، منهم عبد الله العازب الذي حلّته تراجمه بـ "الفقه العلامة الحافظ" (القطعاني، 2011، ج1 ص 305).

د/ الوظيفة الاجتماعية:

وبالتوازي مع الأدوار السابقة يبدو أن مشروع المدرسة الشعّابية كان يهدف إلى اصلاح خلل مجتمعي يتعلق بوضع المرأة في المجتمع، وضرورة الدفع بها في اتجاه المشاركة وإبرازها كفاعل مؤثر ومنتج، ويكفينا في هذا المقام السيدة سمدونة التي جلست بعد وفاة الشعّاب في زاويته لتتصدر مجالس الفكر والثقافة والعلم (القطعاني، 2011، ج1 ص 224)؛ الأمر الذي يشير إلى أنها لم تكن مجرد امرأة سكنت الزاوية من أجل الانقطاع للعبادة، بل إن اقتران اسمها باسم الشعّاب يدل على أنها جلست لخلافته في الزاوية التي بلغت شأنا كبيرا على يديه كما مر بنا، وإن لم تسعفنا مصادر ترجمتها بالمزيد حول تفاصيل وجودها في الزاوية، إلا أن خلافتها لشيخها الشعاب قد يعني اضطلاعها بمهمة الإشراف على كل المهام السابقة في الزاوية، وهو أمر هام جدا يفيد في إدراك مستوى النجاح الذي حققه المشروع الشعابي الإصلاحي، والأمر لا يتوقف عند حد امتلاك سمدونة شروط ومقومات القيادة بل أيضا بقبول الوسط المجتمعي بها كقائد لزاوية لها أهميتها ومكانتها.

وتشير تراجم سمدونة الى مكانة ثقافة وفكرية خاصة كانت تتبوأها، فقد كانت مقصدا لعلماء عصرها كالشيخ أبي نزار البرقي والشيخ محرز بن خلف التونسي، ما يشعر بانتقال الزاوية في عهدها إلى التأثير الخارجي، وربما يكفي الوقوف عند دلالات رواية ارتبطت بلقاء بن محرز بها، لمعرفة مكانتها في الأوساط الفكرية خارج البلاد، وكذلك لاستجلاء المكانة السامقة التي بلغتها المرأة الطرابلسية في المشروع الشعّابي، فقد سئل بن خلف بعد رجوعه من الحج عمن لقي في طريقه، فقال "رأيت في طرابلس رجلا وامرأة، أما الرجل فأبو عثمان بن سعيد الحشاني وأما المرأة فسمدونة، ما الفضيل عياض بأفضل منهم"، ويعلق المؤرخ القطعاني على كلام بن خلف قائلا: "فلا شك أن قياسه لمتصوفة ليبيا على صوفي بحجم الفضيل عياض أحد أهم أعلام التصوف في المشرق يوضح مستوى التصوف الذي بلغته البلاد وقتها" (القطعاني، 2011، ج1 ص 69)، ومن غير شك في أن بن خلف التقى بالعديد من السيدات الصالحات في مصر والحجاز وغيرهما من الأقطار الأخرى في طريقه إلى الحج، لكنه لم يذكر منهن سوى سمدونة ما يشعر بتميزها عن نساء عصرها.

هـ/ طريقة التعاطي مع الأوضاع السياسية:

عاصر الشعّاب زمن الأغالبة الذي كانت فيه البلاد تموج بالخلافات والصراعات على سدة الحكم، لكننا نلاحظ أن تراجمه لم تذكر اتصاله المباشر بالسلطة باستثناء الالتماس الذي قدمه

إلى القاضي ليأخذ إذنا وترخيصا رسميا لبناء الزاوية كما أسلفنا الذكر، وربما يستفاد من هذا التعاطي مع السلطة استجلاء جانب من فكره السياسي، والذي يبدو أنه يقوم على فكرة الاقتراب من شؤون الدولة والحكم دون إحداث اتصال دائم بها أو معارضتها، وفي ذات الوقت يشارك من خلال مشروعه الإصلاحي بشكل مستقل في البحث عن مكامن الزلل والخطأ والسعي لإصلاحها.

ويبدو أن دور الزاوية الدفاعي على علاقة بادراك الشيخ الشعّاب أن السلطة الحاكمة وقتها واقعة تحت ضغوط وتهديدات، فبناء الزاوية في شكل رباط على هيئة قلعة عسكرية يشرف على البحر ومرسى المدينة يعكس الهشاشة الأمنية التي تعانيها البلاد، خاصة في محطيها الإقليمي، فنهض للاضطلاع بمهمة ترتيب الوضع الأمني وبناء حصن دفاعي حول المدينة من جهة، وتأمين عصب حياتها وهو التجارة البحرية من جهة أخرى، فالفكرة الشعّابية ضمن مشروعه قامت على بذل الجهود من أجل مواجهة الأخطار المتأتية من خارج بلاط الحكم وخلق ظروف مواتية ودعم مؤسسات الدولة دون أدنى تدخل فيها.

ثالثا/ الفكر الشعّابي الصوفي:

من خلال هذه الأعمال والوظائف التي مارسها الشعاب في زاويته، يمكننا إجراء قراءة تحليلية للتعرف على فكره ومساراته وتدرج تطبيقاته وترتيبه، وأول ما نرصده هو تحويل المقولات الفقهية – كونه فقيها مالكيا – إلى برامج عمل تنفيذية، فقد أسس لفكره على حقيقة تلازم الفقه والتصوف، وأن الأخير هو المجال الصحيح لتحويل مقولات الأول إلى واقع معاش، فقام بتوظيف رخصة المذهب المالكي في سكنى المسجد بالتجرد للعبادة فيه منطلقا لتفرغه لمهمته، هذا من جانب، ومن جانب آخر فقد فعّل رسالة المسجد في المجتمع، فالمصلون، المترددون على المسجد خمس مرات في اليوم على الأقل، لابد وأنهم شاهدوا عنايته بمراقبة الثغر وسمعوا منه أخبارا لما يرصده وأهمية ما يقوم به. وهو بذلك بث الحس الأمني الوطني وإشاعه في أوساط الناس، ففقه المساجد لا ينحصر عنده في أحكام فقهية نظرية، بل لابد من تفسير معنى المسجد وجمع الناس فيه، وهي فكرة نبوية خالصة مستوحاة من مسجد سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، الذي كان مركزا للإصلاح في مجتمع المدينة المنورة.

ولعله صار من نافل القول أن الترتيب الذي بنى عليه الشعّاب مشروعه – والقائم على ضرورة توفير عامل الأمن كأولوية – متصلٌ بالجانب الاقتصادي الذي لن ينتعش في ظل غياب هذا الأمن، ورأينا كيف اختار موقع الزاوية مشرفا على شاطئ البحر ومرسى المدينة الذي كان

وقتها شريان الحياة الاقتصادية والتجارية، ليس فقط بالنسبة إلى مدينة طرابلس بل يمتد الأمر إلى جميع مشتملاتها من قرى ومناطق أخرى واقعة على تخومها. ويبدو أن مبعث فكرة أهمية الاقتصاد في المشروع الشعَابي نابعٌ من كون الشيخ الشعَاب رجلٌ موسر، وإلا كيف تسنى له إتمام بناء المسجد في شكل رباط يتطلب إنشاءه وجود عدة مرافق حوله، خاصة وأن كتب التاريخ قد وصفت لنا هذا الرباط "على هيئة قلعة بلا مئذنة أو قبة، حيث جعله ذلك أقرب ما يكون إلى القلعة العسكرية؛ مما يدفع إلى القول بأنه كان أقرب إلى الرباط منه إلى المسجد خصوصا وأن موقعه المرتفع على شاطئ البحر على مسافة معقولة إذا ما قورن بقلب المدينة يؤهله فعلا لهذه المهمة، ثم بنيت عليه قبة عقب دفن الشيخ الشعاب به" (القطعاني، 2011، ج1 ص 200)؛ ما يعني وجود مرافق إلى جانب المسجد، وكل هذا يتطلب وفرة مالية وقدرة على التخطيط وامتلاك رؤية مسبقة بشأن مقر المشروع.

وكما رأينا فقد خلق الشعَاب بالتوازي مع العمل على الأمن والاقتصاد برامج تعليمية وتربوية ركزت على تربية النشء وإعداده، وكذلك اعتنى بالشرائح المجتمعية المهمشة كالمرأة واستعادة مكانتها، وكل هذه الخطوات والمسارات تمازجت وتشابك بعضها ببعض في مشروع إصلاحي واسع، يستهدف القاعدة الدنيا في المجتمعات دون اتصال مباشر ومستمر مع السلطات الحاكمة، بل والتزام الحياد دونما أدنى تحيز.

ومن الجدير الوقوف عند مفهوم "العبادة" في الفكر الشعَابي، إذ عادة ما تلازم التصوف في الأذهان بمعاني التعبد والتنسك والخلوة والانسحاب من الحياة بالزهد فيها، لكن الأدوار والمهام التي أداها الشعَاب لا يترجمها معنى الانعزال والانقطاع والتفرغ للعبادة، وأول ما يتعارض مع فكر العزلة للعبادة في عمله هو ممارسته مهمة المرابطة لمراقبة ثغر المدينة، الذي يتطلب رصدا وتقصيا وحركة وتتبعا لأخبار ما وراء البحر وما يدور في الساحة الإقليمية حول البلاد، كما أن مقر رباطه مشرف على ميناء المدينة الذي يموج بالحركة والتجارة والسفن، بما لا يحقق العزلة للتعبد والتنسك والابتعاد عن الدنيا والزهد فيها. ويحيلنا ذلك إلى معنى أوسع وأعمق للعبادة في فكر الشعاب الصوفي، يبدأ بإصلاح نفس الفرد وتوجيه طاقاته الإيمانية نحو البناء والإصلاح المجتمعي، والنظر في الخلل من واقع المشكلة ومحاولة استنباط الحلول منها.

وباختصار فالشعاب أسس للتصوف الإصلاحي الذي يبدأ من القاعدة (المجتمع)، وليس من رأس الهرم (الدولة أو السلطة). لكن ما يلاحظ أن هذا المعنى الشعَابي للتصوف أضحى راسخا في التصوف الليبي حتى أنه شكّل قاعدة لمدرسة ليبية مستقلة، فبعد سبعة قرون يبرز في ليبيا

أهم متصوفيها وأشهرهم، وهو الشيخ عبد السلام الأسمر، الذي نجد فيه سيرته أنه سئل عن معنى تلقيبه بـ"الأسمر"، فقال "سميت بالأسمر لمبيتي الليالي سمرا في طاعة الله"، وعند تتبع أعمال الشيخ الأسمر وانشغالاته في عصره نجد أنه أطلق مشروعا إصلاحيا ينبعث من ذات المعنى للعبادة ناشرا منه أركان مشروعه في ذات الأبعاد التي اعتمدها الشعّاب (بن هامل، 2023، ص 62).

رابعا/ المدرسة الشعابية المرجعية الفكرية للتصوف الليبي:

تعكس أعمال الشعّاب كما رأينا وعيه بأهمية مأسسة العمل وتنظيمه، فلم ينعزل كما قد يتبدى من اتخاذه المسجد مكانا للتعبد، بل حوّله بعد أن أكمل بناءه الى مؤسسة مارست أدوارا تعليمية واجتماعية وثقافية وفكرية. ويبدو أن هذا العمل المؤسسي المنظم كفل له الاستمرار، فالرصد والتتبع للفترات التالية لعهده في التاريخ الليبي تظهر بجلاء استمرار مسار العمل الصوفي على الأسس التي أقام عليها مشروعه وبناه، ما يؤكد وجود مدرسة ليبية مستقلة.

وفي داخل طرابلس ربما تكفينا كما سبق إفادتي كل من البكري الذي تحدث عن طرابلس في القرن الخامس الهجري والقزويني في القرن السابع الهجري عن انتشار الأربطة في طرابلس، ما يشير إلى استنساخ العديد من الشخصيات الصوفية اللاحقة على الشعاب في طرابلس لتجربته في بناء الأربطة. وفي سياق تقصي مضمون مشروع وفكر الشعّاب في أبعاده التي كشفت عنها وظائف زاويته، ومدى استمرار ذلك المضمون راسخا في أعمال المتصوفة من بعده، يبدو ذلك من السهولة بمكان، ما يؤكد فرضيتنا بأن التصوف في ليبيا هو مدرسة مستقلة بمنهجها وخصائصها وأعمالها ورجالها.

وما يزيد من شهادة البكري والقزويني تأكيدا أننا نجد في ثنايا وقائع التاريخ بين القرنين الخامس والسابع الهجريين شخصية صوفية اتخذت من زاوية الشعّاب مركزا لقيادة معركة لصد حملة صليبية قدمت من صقلية، ففي القرن السادس الهجري اتخذ السيد سليمان الفيتوري، وهو رمز صوفي ليبي بارز، الزاوية مقرا للمجاهدين وأدار منها المعركة التي صدت حملة النورمانديين التي قادها روجر الصقلي عام 537 هـ لاحتلال طرابلس، بل ودفن في الزاوية إثر استشهاده في هذه المعركة يوم 17 ذي الحجة من ذات السنة (بن هامل، 2023، ص 217). وتفيد هذه الواقعة في اجلاء جانب آخر في شخصية الشعّاب يتعلق بمعرفته بالأهمية الاستراتيجية للموقع، فقد كان الخيار متاحا له ليبني فيه رباطه في أي مكان آخر إن كان قصده التعبد

والتنسك في معناه الضيق المحدود، فلا بد وأن وراء اختياره لهذا الموقع دوافع استوعبها بعميق تفكيره ومتابعته لوضع البلاد عموما.

ووفقا لتحديد الوظائف التي رسمها الشعّاب لعمل زاويته، يمكن تقصي أبعادها في العمل الصوفي من بعده على فترات بعيدة في التاريخ الليبي:

أ/ البعد الأمني والدفاعي:

واستمرارا في الحديث عن أثر فكر الشعّاب في العمل الصوفي الليبي، يبدو أنه من المفيد التوقف عند مضامين المشروع الشعّابي وصلته بالعقيدة الإسلامية وحمايتها، فبعد زمن غير بعيد من وفاته شهدت طرابلس ثورة لرفض الفكر الشيعي العبيدي قادها الشيخ أبو الحسن علي بن المنمر المتوفى سنة 432هـ/1041م، أحد أهم رجال المدرسة الشعابية وأبرز حملة السند الشعابي الصوفي (القطعاني، 2011، ج1 ص 231).

وفي القرن العاشر الهجري نجد أن الشيخ الأسمر نقل مفهوم الجهاد إلى مستوى أعمق، إذ بالإضافة إلى مشاركته الواضحة في دعم قوى الجهاد العسكري ضد الغزاة الصليبيين، تشير أعماله الأخرى إلى اتجاهه نحو تركيز جهوده لحفظ العقيدة الإسلامية من خلال بث قوي ومكثف ضمن الاجتماعات التي نظم لها قصائد ومناظيم شعرية باللهجة الدارجة تتضمن مسائل عقدية وأسماء المئات من علماء الإسلام، بهدف مواجهة خطر التنصير الذي كان من ضمن استراتيجيات منظمة فرسان القديس يوحنا، وذلك إبان سيطرتها على طرابلس في القرن العاشر (بن هامل، 2023، ص 189)، وعندما نفي منها كوّن في منفاه بجبل سوف الجين، بالقرب من بني وليد، ما يشبه ثكنة مقاومة لا تزال تعرف إلى اليوم باسم "القلعة" في دلالة واضحة على وظيفته الدفاعية والعسكرية.

ويحلينا انتقال الشيخ الأسمر الى الدواخل للمشاركة في مقاومة الغزاة، الى دور قام به الصوفيين متصل بالوعي العميق بمسألة الأمن التي تموضعت في مكان رئيسي في الفكر الشعّابي، فقد اضطلع صوفية البلاد بمهمة حماية الثغور الصحراوية أيضا لتأمين ممرات وطرق التجارة الصحراوية، وهو ما يعكسه اتجاههم لبناء العشرات من الزوايا في الدواخل على مفترق طرقات التجارة حيث تجوب القوافل التجارية الصحراء، وتحولت زواياهم بمرور الوقت الى محطات رئيسية لتوقف هذه القوافل القادمة من العمق الأفريقي أو من الساحل الشمال، وهي مسألة تصب في مضمون ومعنى التعبد كما صاغه الشعّاب، إذ بالنظر إلى لمواقع التي اختارها الصوفيين في تلك الأنحاء لبناء زواياهم يتبين أن قصدهم لم يكن الانعزال والابتعاد عن الحياة

للتعبد والتنسك في تلك المناطق، ومثاله اختيار أولاد امحمد الفاسي، وهم من رموز الطريقة العروسية الصوفية (بن هامل، 2024، ص 392)، منطقة مرزق وسط الصحراء عاصمة لدولتهم، إذ تحولت في عهدهم الى حلقة وصل أساسية بين الجنوب والشمال ومحطة تجميع القوافل وتوزيعها وملتقى لتبادل التجارة (الأبيض، 1998، ص 231)، وقد يعين في فهم دور الزوايا الصوفية في تأمين طرقات التجارة رسم خارطة ترصد مقار الزوايا في الداخل وتبين مواقعها، لنكتشف أن أغلبها كانت محطة رئيسية لقوافل التجارة الصحراوية.

ويجب علينا تسجيل ملاحظة تتعلق بوعي الصوفيين الكبير بضرورة تأمين طرابلس حاضرة البلاد، حيث نجد أن انتشار الزوايا تركز في القطاع الغربي لساحلها بدءا من زاوية عبد الجليل ثم زاوية أولاد سنان ثم زاوية بوعيسى، وبموازاة زاوية عبد الجليل على ساحل البحر تقع زاوية أبوجعفر بجنزور في الداخل (الزاوي، 1968، ص 150 – 159 – 160). وهو توزع ولابد يشير الى عمق الوعي لدى الصوفيين بأن الأخطار المحدقة بطرابلس تتركز في قطاع ساحلها الغربي حيث يكثر غزو القبائل وقطاع الطرق، إضافة للأخطار العسكرية القادمة من مراكز الحكم في تونس والجزائر، بينما لم تشكل الدواخل الشرقية لطرابلس أي مخاطر عليها، ولذا نبوا زواياهم على الساحل الشرقي كما في سبان والأندلسي وما جاورها من زوايا في تاجوراء، ضاحية طرابلس الشرقية.

ب/ البعد الاقتصادي:

وفي الجانب الاقتصادي، يجدر التذكير مرة أخرى بأهمية العامل الأمني لخلق بيئة اقتصاد نشطة، فالعلاقة بين عاملي الاقتصاد والأمن علاقة طردية، وما قامت به زاوية الشعّاب والزوايا التي تلتها في جانب وظيفتها الدفاعية كان له عظيم الأثر الإيجابي على النشاط الاقتصادي، فإن كانت الإشارة إلى وجود علاقة بين مهنة الشعّاب كنجار وبين صناعة السفن مجرد افتراض وتخمين، فمما لا شك فيه أن زاويته والزوايا التي انتشرت من بعده على طول الساحل – كما يفيد البكري والقزويني – كان لها دور هام وأساسي في تأمين الموانئ، فبتدقيق النظر في مواقعها نلاحظ عناية أصحابها ببنائها بالقرب من الموانئ أو المواقع ذات العلاقة بالتجارة البحرية، وهي مسألة لم تولها الدراسات المعنية بالتاريخ الليبي في كلا الجانبين الاقتصادي والجغرافي أهمية تذكر، ولم تبحث في العلاقة بين دور الزوايا في مجالات التأمين والحماية ورواج الاقتصاد وتنوع الأنشطة إبان قيامها بوظيفتها الدفاعية.

ولتقريب ذلك يفيد ربط خارطة توزع الزوايا حول طرابلس، خاصة في القطاع الغربي منها، بشهادات الرحالة الذين وصفوا رواجا اقتصاديا وزراعيا نشطا للغاية حول تلك الزوايا، وهم في طريقهم الى طرابلس قادمين من تونس أو المغرب، بل يرصد بعضهم امتداد هذه الأنشطة الزراعية والبساتين حتى طرابلس، وكل هذا يشير إلى نجاح فكرة الشعّاب واتجاه الصوفيين من بعده إلى استنساخها والعمل بها، وعيا منهم بأهمية إرساء وتعزيز أسباب الاستقرار كزرع مساحات من الأراضي بالأشجار حول زواياهم لتتحول مع مرور الوقت الى بؤر استقرار حضري، حيث تتعدد لتتصل مساحاتها فيما بعد فتؤثر بشكل مباشر في خلق ظهير دفاعي عن المدينة، وبالقطع فإن توفر عامل الأمن انعكس على النشاط الاقتصادي لطرابلس، خاصة وأنها محطة مهمة بالنسبة إلى كل مناطق حوض البحر المتوسط والعمق الافريقي في التبادل التجاري؛ إذا ما نظرنا الى أن القوافل البحرية والبرية بحاجة إلى الأمان لتنقلاتها.

وكما أسلفنا فقد نقل صوفيو ليبيا تجربة الشعّاب إلى مناطق العمق باتجاه الجنوب، فعلى الرغم من أن الدراسات التي اعتنت بقضية التجارة الصحراوية المارة من طرابلس وحواضر برقة باتجاه الجنوب لم تتناول تفصيلا في جانب حماية تلك القوافل ومن يقوم بهذه المهمة، إلا أنه لا يمكن إنكار أن القوافل كانت تجد الأمان والحماية في الزوايا المنتشرة في كل واحة وقرية في الصحراء، وإن كان بعض تلك الدراسات قد نقلت عن مصادر أجنبية مراسلات بين سلطان وادي والشيخ يونس العجايبي (ت بعد 1285هـ/ 1868م)، وفي جالو يبرز دورها الأساسي في تأمين قوافل تجارة سلطنة واداي (رولفس، 2000، ص 61)، إلا أن تلك الدراسات لم تعتن بالخلفية الصوفية للشيخ العجايبي، فقد كان من أبرز شخصيات الطريقة السنوسية وله أدوار مهمة تتصل بعمليات تأمين طرقات التجارة الصحراوية (القطعاني، 2011، ج2 ص 495).

لكن من الجدير بالذكر – ونحن بصدد تناول مسألة مدى استمرار وعي المدرسة الصوفية في ليبيا بموضوع الارتباط الوثيق بين كل من الأمن والأنشطة الاقتصادية من عدمه – الإشارة إلى محطة رئيسية في التاريخ الليبي أقرت جميع الدراسات بدورها الفاعل في التجارة والاقتصاد وتشجيعها ورواجها وأيضا توفيرها لعامل الأمن الأساسي، وهي دولة أولاد امحمد الفاسي في مزرق كما أسلفنا، لنضيف إليها أمثلة أخرى كاختيار الشيخ محمد الأزهري الجربوي المتوفى سنة 1322هـ/ 1904م منطقة طبقة ليؤسس بها زاويته الشهيرة وتحولت بمرور الوقت الى منطقة جذب سكاني ومحطة لتوقف قوافل التجارة (القطعاني، 2011، ج2 ص 587)، ومثله

اختيار الشيخ محمد بن علي السنوسي لمنطقة الجغبوب الصحراوية لبناء مدرسته فيها وتحولت على يديه الى موقع سكاني ومحطة رئيسية لقوافل التجارية أيضا.

وهناك الكثير من الشواهد التي تعكس وعي رجال التصوف في ليبيا بأهمية الاقتصاد وارتباطه بقضية الدفاع، ففي الظروف الحساسة والعصيبة خاصة أثناء احتلال الإسبان لطرابلس في القرن العاشر الهجري، وتزامنا مع تنظيم المجاهدين لصفوف المقاومة العسكرية في تاجوراء وغريان وغيرهما، خرج "أكثر من مائة صوفي يطوفون حول مدينة طرابلس ودواخلها يدعون إلى الجهاد، والمقاطعة الاقتصادية للمحتلين، ونجحت المقاومة الاقتصادية فتحولت التجارة البحرية عن ميناء طرابلس إلى موانئ مصراته وحرم الإسبان بذلك من دخول المدينة الرئيسية" (القطعاني، 2011، ج1 ص 465)

ج / البعد التعليمي والتربوي:

يظهر أثر اشتغال الشعّاب على قضيتي التعليم والتربية واضحا في أعمال أغلب رجال التصوف من بعده، فلا نرصد اختلافا كبيرا بينهم خاصة عند ظهور مشكلات الجمود الفكري، فكما سبق وأن رأينا اتجاه الشعّاب إلى تركيز جهوده على بناء النشء الجديد لتجاوز المشكلات الفكرية في سياقات الراهن الذي عاشه، ضمن نهج ركز فيه على الموازنة بين التعليم والتربية وفق مفاهيم حديثة في عصره للمقولات الدينية عندما تنحصر فهمها خلال فترات الجمود الفكري على المستوى النظري فقط؛ كنتاج لسيطرة حرفية النصوص وجمود العقول عن فلسفتها وفهمها العميق دون فاعليتها كمنهج للحياة. والملاحظ في مثل عمليات التجديد التي ينتجها الصوفيين لتنفيذ برامج معالجة الجمود الفكري أنها تواجه بمواقف رافضة عادة ما تبرز في مقابل أي طرح جديد يقدمه الصوفيون لفهم تلك المقولات، ويلاحظ أيضا وجود قاسم مشترك بين أولائك الصوفيين في التعاطي مع حملات الرفض والمعارضة لطروحاتهم التجديدية، فنجدهم يتركون السائد ويتحاشون الجدل فيه، وفي الأغلب يستقلون بمدارس جديدة توفر لهم فضاء العمل بهدوء، وإن كانت مصادر التاريخ لم تحدثنا عن تعرض الشعّاب لحملة اعتراض ورفض، إلا أن طلبه من صاحب المسجد رفع يده عنه وعدم مشاركته في تمام بنائه، قد يفهم منه رغبته في الابتعاد عن محيطه درأ لأي اعتراض محتمل على مشروعه الإصلاحي، خاصة وأنه أظهر بداءة رغبته في أن يسكنه كدلالة واضحة على رغبته في الاستقلال به كفضاء خاص به لتنفيذ مشروعه.

وهذا التعاطي مع مواقف الرفض والمعارضة نرصده بشكل واضح في حياة شخصيات تجديدية لاحقة في المدرسة الصوفية الليبية، ومنهم على سبيل المثال الشيخان الأسمر والسنوسي، إذ تعرضا إلى حملات واسعة من الإنكار والمعارضة تجاوزت ليبيا لتصل إلى أقطار إسلامية أخرى في معاقلها العلمية، ففي حالة الشيخ الأسمر لم تتوقف حالة المعارضة على فقهاء الداخل بل وفدت عليه شخصيات أخرى من تونس وتنبكتو والحجاز ومصر (مخلوف، 1966، ص 96 – 99)، وكذلك الشيخ السنوسي في مصر والحجاز وغيرها (الدجاني، 1967، ص 107)، لكنهما فضلا عدم الدخول في جدل مع معارضيهم، وإن حفظت لنا كتب سيرهما ما يشير إلى وقوع بعض المناظرات لكنهما في كل الأحوال فضلا ترك الجدل والصدام مع السائد والاستقلال في فضاءات بعيدة يمكن العمل من خلالها بهدوء، فابتعد الشيخ الأسمر عن أي فضاء عرف كلا من التصوف والفقه في حالته الجامدة سواء في تاورغاء أو مصراته أو الفواتير وأسس زاويته في منطقة نائية بمسقط رأسه في مدينة زليتن (مخلوف، 1966، ص 112)، وكذلك تنقل الشيخ السنوسي بين أكثر من منطقة حتى اختار الجغبوب التي لم تكن قبله إلا فضاء صحراويا لا حياة فيه، ومن بعدهما انتهج الشيخ محمد حسن ظافر المدني ذات المنهاج وبنى زاويته في إحدى ضواحي مدينة مصراته (النائب، 1984، ج1، ص353)، وقبلهم ترك الشيخ أحمد زروق الحواضر العلمية الكبرى وفضّل بناء مدرسته في ضاحية بمدينة مصراته.

ومما يجب تسجيله والوقوف عنده هو ذلك التشابه الكبير في أعمال رجال التصوف فيما يتعلق بالعملية التعليمية التربوية؛ الأمر الذي يعكس تكاملا مع أسس المشروع الشعّابي في هذا الجانب الذي يقوم على فكرة الجمع بين التعليم والتربية، فنجد أن أعمال رجال التصوف قامت من بعده على ذات الفكرة.

وفيما يخص الجانب التعليمي، فإن السالك الصوفي يدرس عددا من العلوم الأساسية كالفقه والتوحيد والنحو المنطق، مع أهمية الأخير لتعلقه بإصلاح عملية التفكير وبنائها على قواعد عقلية، وإن كنّا نجد الكثير من الأمثلة لهذه المرحلة في سير وأعمال الكثير من الصوفيين الليبيين، إلا أننا نعود إلى الاستشهاد بشخصية الشيخ الأسمر، كونه أبرز رموز التصوف الليبي، ففي سيرته التكوينية درس هذه العلوم الأساسية على أيدي شيوخه ثم قررها فيما بعد موادا أساسية في برنامج التدريس اليومي بزاويته (القطعاني، 2011، ج1 ص 375)

ويركز الجانب التربوي على الزيارات المفتوحة والواسعة التي تعرف في الأدبيات الصوفية بـ "السياحة"؛ وذلك بهدف نقل المجال العلمي إلى المجال العملي، فيوصي الشيخ الأسمر مريديه

بعد انتهاء فترة التعليم والتأسيس بـ "النظر حين البلوغ، فمن لم ينظر ولا يأت بدليل أو برهان، ففي إيمانه خلاف، وهو عند جميع الموحدين مقلد، والمقلد ليس بكامل" (الأسمر، 1976، ص3)، وعملية التأمل وإعمال العقل للنظر والاستدلال تحتاج – فيما تحتاج – إلى سياحات طويلة، وهو ما نجده في سيرته هو نفسه، إذ بعد أن أتمّ فترة التعلم على يد شيوخه خرج في سياحة طويلة وصلت إلى تونس مر خلالها بالعديد من المعاقل والمدارس والمكتبات والمحطات (مخلوف، 1966، ص 100)، ومن الواضح أن هذه السياحات الميدانية هي أحد أصول المدرسة الصوفية الشعَابية إذ نجد عددا ممن تخرّجوا فيها قد دخلوا في سياحات طويلة كالشيخ عبد الله العازب والشيخ أبو نزار البرقي غيرهم كما يظهر في تراجمهم، وظل هذا الجانب مرحلة أساسية في العمل الصوفي لدى جميع الصوفيين الليبيين، إذ كان حاضرا في سيرة الشيخ السنوسي وأتباعه، بالإضافة إلى أعمال الشيخ محمد المدني حتى أن لابنه الشيخ محمد – الذي خلفه من بعده في قيادة طريقته المدنية – كتاب في السياحة عرف باسم الرحلة الظافرية (البغدادي، 1951، ج2، ص399)

هـ / البعد الاجتماعي:

وأبرز ما يمكن رصده في البعد الاجتماعي في عمل مجمل صوفية ليبيا، هو استمرار تأثير نموذج المرأة في المدرسة الشعَابية الذي مثّلته السيدة سمدونة، فتكاد النسوة الصوفيات الليبيات أدين ذات الدور عبر مراحل التاريخ الليبي، إذ برزت المرأة الصوفية الليبية على الدوام كعلامة وحلقة للتواصل الثقافي بين البيئة الليبية ومختلف البيئات في الأقطار العربية والإسلامية الأخرى، بدءا من السيدة سمدونة التي كانت مقصد العديد من الشخصيات العلمية البارزة، كالعالم التونسي محرز بن خلف، حتى أن أخبارها لم تصلنا سوى من مدونات التاريخ الثقافي التونسي، وهو أمر كاف للتأكيد على دورها التواصلي بين البيئات الليبية وغيرها.

وصار هذا الدور قاسما مشتركا في أعمال النسوة الصوفيات الليبيات، وعلى سبيل المثال لا الحصر نجد السيدة الدرعية – والدة الشيخ عبد السلام الأسمر – حلقة تواصل بين البيئة الليبية والبيئة المغربية، فهي ابنة العالم المغربي عبد الرحمن الدرعي كبير المدرسة الدرعية المغربية في عصره، وعبرها ارتبط الثقلان الصوفيان: الفواتير في ليبيا والدرعيون في المغرب (بن هامل، 2023، ص 237)، كما نرصد شخصية أخرى وهي السيدة زبيدة زوجة الشيخ علي الحضيري التي مثّلت حلقة وصل بين الوسط الأزهري في مصر والأسرة الحضيرية العلمية الصوفية في الجنوب الليبي، فهي ابنة العالم الأزهري الكبير الشيخ سالم السنهوري تلميذ الشيخ

الأسمر. ولا شك بأن لمثل هذه المصاهرات آثارها العلمية كما ظهر اهتمام الشيخ السنهوري بمختصر خليل الفقهي في أحفاد ونسل السيدة زبيدة الحضريين، فكتب أغلبهم شروحا في الفقه سيما على متن خليل (القطعاني، 2011، ج2 ص 53).

وفي القرن الثالث عشر الهجري نرصد شخصية السيدة راقبة بن محمد صالح الحضيري التي قامت على إعداد ابنها الشيخ محمد الحضيري، الذي حمل معه الثقافة الصوفية الليبية أثناء دعوته للإسلام والتصوف في نيجيريا والنيجر وتشاد، فقد جلس معلما وعالما في مدارس كانم وبرنو وغيرها، وحين وافته المنية أضحى قبره في النيجر – حتى اليوم – علامة على التواصل الحضاري بين ليبيا وتلك الأقطار (القطعاني، 2011، ج2 ص 446).

وفي هذا السياق يمكن رصد الكثير من الأمثلة الأخرى، لكن ملمحا آخر من الأهمية بمكان يجب تسجيله في عمل المرأة الصوفية الليبية كحلقة وصل ثقافي، وهو قيامهن بهذا الدور للربط بين بيئات علمية وصوفية غير ليبية، ففي القرن العاشر الهجري كانت السيدة خديجة الطرابلسية التي توفيت بعد سنة 999هـ/ 1591م، سببا في الاتصال الثقافي والفكري بين شخصيات من المغرب واليمن، فكما يحدثنا عن ذلك العالم المغربي يوسف بن عابد الفاسي في رحلته بأنه سألها عن شيخ مرشد في التصوف فدلته على شيخ صوفي في اليمن، ما لبث أن هاجر إليه وتتلمذ وتخرج على يديه وصار رمزا صوفيا مغربيا هاما (القطعاني، 2011، ج2 ص 32)، وكذلك كانت السيدة فاطمة اليشرطية التي مثّلت أهم الروابط الثقافية بين ليبيا وتونس وفلسطين، إذ أنها ابنة الصوفي علي اليشرطي التونسي الذي هاجر من تونس إلى ليبيا ليتصوف على يد الشيخ المدني في مصراته، وفيها تزوج وأنجب ابنته فاطمة قبل أن يهاجر – بأمر شيخه المدني – إلى عكا بفلسطين، حيث نشط في الدعوة إلى التصوف على الطريقة المدنية، وهناك اشتهرت فاطمة كأبرز الشخصيات الثقافية والفكرية، وكانت تعتز بثقافتها الليبية الأصيلة في مجالسها التي يؤمها مفكرو ومثقفو العرب (اليشرطية، 1957، ص 55).

خاتمة البحث

لعبت الخصوصية الجغرافية الليبية دورا هاما بين مختلف الأقطار في مناحيها الأربعة، فكانت بمثابة جسر للتواصل بينها، وقد كان لهذا أثرا مباشرا في تشكل ظاهرة التصوف في ليبيا وإرساء معالمه وقواعده ومن ثم الاستمرار في توثيق عراه وتمتين أركانه، فمقابل ما وفره العامل الجغرافي من فرص من أجل التعرف على الثقافات والأفكار المارة يمنة ويسرة، وتلاقحها قبل استقرارها في البيئات الأخرى، وبطبيعة الحال التأثير الليبي في تلك البيئات، أدركت

الشخصيات العلمية والصوفية الليبية – في تلكم الأثناء – أهمية بناء حصون تقي من الآثار التي قد تحمل أهدافا أيديولوجية ضارة، ناهيك عن الأخطار والأفكار والتيارات، فجاء تأسيس البناء الثقافي والفكري للمدرسة الصوفية الليبية وفق أصول راسخة لا تحمل في طياتها أي توظيف أيديولوجي قد يؤثر سلبا على محيطها، وبمرور الوقت – ومع زخم الشخصيات الصوفية الليبية – قويت شوكة تلك الحصون الفكرية الثقافية؛ الأمر الذي دعا إلى تشكيل مدرسة صوفية مستقلة في كل من التفكير والعمل والإنتاج المعرفي على حد سواء.

قائمة المصادر والمراجع

1. الأبيض، رجب (1998). مدينة مرزق وتجارة القوافل الصحراوية خلال القرن التاسع عشر. مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية. طرابلس. ليبيا.
2. الأسمر، عبد السلام. (1976). الوصية الكبرى. مكتبة النجاح. طرابلس. ليبيا.
3. البغدادي، إسماعيل. (1951). هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين. وكالة المعارف. استنبول. تركيا.
4. البكري، عبد الله. (1992). المسالك والممالك. دار الغرب الإسلامي. بيروت. لبنان.
5. بن هامل، أسامة. (2023). قفة الصلاح: قراءات جديدة في سيرة الإمام عبد السلام الأسمر. مركز الشيخ أحمد القطعاني للثقافة والدراسات الإسلامية. طرابلس. ليبيا.
6. التجاني، محمد (1981). رحلة التجاني. الدار العربية للكتاب. تونس. تونس.
7. خليل، محمد. (2005). مختصر خليل. دار الحديث. القاهرة. مصر.
8. الدجاني، أحمد. (1967). الحركة السنوسية نشأتها ونموها في القرن التاسع عسر. دار لبنان. بيروت. لبنان.
9. رولفس، غيرهارد. (2000). رحلة الكفرة. مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية. طرابلس. ليبيا.
10. الزاوي، الطاهر. (1968). معجم البلدان الليبية. مكتبة النور. طرابلس. ليبيا.
11. القزويني، زكريا. (1960). آثار البلاد وأخبار العباد. دار صادر. بيروت. لبنان.
12. القطعاني، أحمد. (2011). موسوعة القطعاني: الإسلام والمسلمون في ليبيا منذ الفتح الإسلامي 21 هـ . 644 م إلى سنة 1421 هـ . 2000م. دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع. القاهرة. مصر.
13. مخلوف، محمد. (1966). تنقيح روضة الأزهار. المكتبة الثقافية. بيروت. لبنان.

14. النائب، أحمد. (1984). المنهل العذب في تاريخ طرابلس الغرب. مكتبة الفرجاني. طرابلس. ليبيا.
15. اليحصبي، عياض. (1965). ترتيب المدارك وترتيب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك. مطبعة فضالة. المحمدية. المغرب.
16. اليشرطية، فاطمة. (1957).رحلة الى الحق، فاطمة اليشرطية، د.ن.